

حصار الأرواح

كان بعمر الورد، أحلامه لم تتجاوز سقف البيت بعد، دنياء تنحصر بين ابتسامة أمه وطبق المهلبية الساخن، لم يعرف طعم الغناء، فكل طلباته أوامر، ولا أحد يستطيع رفض أحكامه العسكرية القاطعة، فالكل يحبه ويطلب منه الود.

فجأة كل شيء تغيرت ملامحه، فقد ساد البيت جو من الوجوم والاكتئاب، كل الذي فهمه أن هنالك حرباً وشبكة، والجميع مشغولون بها عنه، لقد بات يمقت اسم الحرب؛ فهي تسرق منه عالمه الخاص، لا أحد يبادل له اللعب كالسابق، وأطباق المهلبية انخفضت أعدادها إلى حد العدم، وبات الناس يعشقون أجهزة المذياع والتلفاز برغم الفزع الذي تلقينه في نفوسهم، والجميع يسمعون نفس الأحاديث المعتادة عن قسوة الضربة القادمة وشدتها، لكنه لم يعبأ بكل هذا؛ فهو لم يرتكب ذنباً ليشن الآخرون حرباً عليه، ويحرموه من متعة العيش ضمن عالمه الخاص.

اقترب موعد الحرب، والحصار سيبقى حتى يتم الإنعان، هكذا كان الجد يقول... لم يكن يفهم شيئاً مما يجري سوى أن حدثاً ما أثر في عالمه الخاص به، وحرمة الكثير من امتيازاته.. لقد تغير مزاج من حوله لدرجة أن أمه صفعته عندما ألح في طلب المهلبية، ووصفه أخوه محمد بالغبي الذي لا يعرف شيئاً ولا يقدر خطورة ما يجري، كل ذلك لم يكن يعنيه؛ لأنه لم يشارك في حرب قط ولم يعلنها على أحد، والمنطق لديه يقول: إن من الظلم أن يقع ضحية قرارات لم يتخذها أو يشارك بها، لكن أحداً لم يستمع لآرائه؛ لأنه أصغر من أن يقدر حدثاً وشيكاً بحجم الحرب كما تقول الأم.



بقلم: أيمن الحمدة
الأردن

كان الجميع يتحلقون حول جهاز التلفاز، أما الجد القابع في زاوية البيت فقد أخذ يقلب مفتاح موجات المذياع بتوتر، لم ينم أحد تلك الليلة، حتى هو بقي مستيقظاً ينتظر لحظة الصدام. الجدة من حوله كانت تبكي وتتلو ما حفظتها من آيات قرآنية، وأمّه أخذته في حضنها وتمتمت بكلمات لم يفهم فحواها؛ لكنه كان يستشعر ارتجاف أطرافها وهي تمسح على رأسه وتكرر عبارة كانت بالنسبة له بمثابة اللغز: «الأيام حبلى يا ولدي»،... لقد كانت يدها الحانية وأنفاسها الزكية تعيد له بعض الاعتبار بعد الإهمال الذي لقيه بسبب الأحداث التي قلبت حياته رأساً على عقب.

لم يستطع مقاومة النعاس، فغط في نوم عميق، وفجأة استيقظ من نومه على ضجيج مخيف، نظر حوله بقلق، من يفسر له ما يجري؟ أخيراً عرف السر إنه أزيز الطائرات العملاقة، هذا ما قاله الأب وهو يسارع إلى إغلاق النوافذ. كان الصوت عالياً ويبعث على الرعب... والسماء بدت وكأنها غاضبة عليه، ماذا هناك؟ هل بدأت

حرب الشيطان التي كنت تتحدث عنها يا جدي؟ لا تقلق يا محمد! قاله الأب باضطراب. لم تكن كلمات الأب لتزيل مخاوفه أو لتمنع هدير الطائرات التي تملأ السماء، وتكاد تفجر الصدور بما فيها من أهات ومخاوف، لم تمض تلك الليلة بسلام فقد سقط صاروخ بجانب بيته، ضرب على مركز أمني مما سبب اهتزازاً شديداً للبيت، لقد شعر لحظة سقوط الصاروخ بأن الحياة باتت في عينه ضيقة كخرم الإبرة.

في الصباح كانت الحياة قد دبّت من جديد في أوصاله، لكنه لم ينس ليلة الأمس المرعبة، وكان كلما اقترب المساء فقد أعصابه، فهو لا يريد أن تتكرر مأساة الأمس... ورغم تكهنات الجد الذي قال له: إن الحرب ستبدأ بعيداً في الجنوب، وإنها ستتحول إلى حرب برية تنتصر بها؛ إلا أن هذا لم يزل الفرع من نفسه، فقد فكر كثيراً، وبعد طول عناء وصل إلى نتيجة مفادها: أن الحرب إذا ما وقعت في الجنوب لن تنهي مخاوفه وقلقه؛ فربما تحصّد روح (محمد) أخيه الأكبر، أو أن تعيقه إلى الأبد تماماً مثل (جاسم) جارهم الذي يجلس أمام بيته يومياً ليرسم على الأرض ذكريات الحرب الأولى المريرة التي حولته إلى إنسان عاجز.

تكرر المشهد المشؤم للطائرات الغازية مدة تجاوزت الأربعين يوماً، فهي في كل ليلة تصب جام غضبها على المدينة التي لفها الغمام الأسود. أمام هذا المشهد اليومي فقدت كلمات الطمأنينة التي يطلقها الأب بين الحين والآخر مصداقيتها لدرجة أصبحت كل الأمور فيما بعد لديه

اعتيادية؛ حتى الخبز الأسود الذي أجبر على تناوله منذ ستة شهور ونيف بات أمراً لا بد منه.

بعد طول ترتب وانتظار رفعت الحرب أوزارها، لكن الحصار لم يرفع أوزاره، لقد أصبح الحصار في ذهنه أشد وطأة من الحرب، بل تحول مع الوقت إلى حكم بالفناء لشعب بأكمله؛ هكذا قال الأستاذ في مدرسته التي تشققت جدرانها بفعل الغارات المتتالية، ولم يجبر ترميمها لوجود الأولويات الأخرى كالغذاء، لقد باتت الحياة صعبة للغاية، ولا أمل لرفع الحصار مع طول الوقت، والمثل ضرب أطنابه واستشرى في النفوس، ولم يعد هناك شيء يستحق الحياة في نظره. الجد والجدة توفاهما الله، والأب بات مشغولاً بالعمل الإضافي بعد الظهر، ومحمد الشقيق الأكبر سافر إلى أمريكا بعد أن أسره العدو، وخبروه بين الرجوع إلى بلده أو السفر إلى أمريكا؛ فاختار طلب اللجوء الإنساني إلى حيث لا يعرف له عنوان؛ ليس في الأفق أي أمل، هذا ما عبر عنه الأب بعد طول يأس أثناء حوار مع الأم ليلاً.

مضت سبع سنوات على الحصار دون أن يرفع، والأمل في رفعه بات معدوماً، وأعباء الحصار ناءت بها عائلته التي لم تعد تجد ما يقوتها في كثير من الأحيان، والآنكى من ذلك هو ما أصابه من سوء تغذية وهو الابن الأصغر والأغلى؛ وما رافق ذلك من أثر على صحته بشكل مباشر.. لا بد من اتخاذ قرار عائلي حاسم لا يقل أهمية عن قرار الحرب الذي لم يقرره أحدهم. كان الجميع في البيت يبحثون عن التغيير بعد ما ألم بهم من وبيلات، لا بد من مخرج، هذا ما شغل تفكير الأب طوال الأيام السالفة. لقد جلس الجميع بانتظار أمر من نوع ما، انتهى أخيراً إلى إصدار الأب قراراً حاسماً في نهاية الأمر، لا بد من الفرار، لكن إلى أين؟ قالته الأم بذهول!! لم يجب أحد لتوسلاتها فكان القرار من الأب حاسماً: سنذهب إلى أوروبا، لكن كيف، ومتى، والبيت والأولاد؟؟ كلها أسئلة طرحتها الأم ولم تجد لها آذاناً صاغية عند الأب الذي أنهكته سنوات الحصار، توسلت إليه طويلاً، لكنه أصر: لا مناقشة فقد أخذت القرار. قاله الأب بتوتر، وأضاف: سنسافر عبر الشمال إلى دولة مجاورة ومن ثم سنسير باتجاه أوروبا، كل شيء بات مرتباً، فقد جلبت جوازات السفر الموزرة للولد، بالإضافة إلى جواز سفر لي ولك، لا تقلقي يا زوجتي قد آن الأوان للخروج من المأزق الذي يحيط بنا، لا تتوسلي ليس هناك مجال للنقاش لقد بعث البيت وحاجياته وغدا سوف ننطلق.

قضت الأم تلك الليلة تبكي بمرارة، لكنها استسلمت في النهاية للقرار الصعب، وحصل ما أراد الأب، فقد خرج الجميع من البيت في ليلة مظلمة بعد أن باعوا البيت والأثاث بثمن بخس، كان الطريق باتجاه أوروبا شاقاً للغاية، فالسير على الأقدام لعدة أيام، والتعرف على المهربين وتلبية مطالبهم والتفاهم معهم في كل محطة تصل إليها العائلة كان أمراً صعباً في ديار الغرب، بعد أشهر من المعاناة ارتسمت على وجه الأب ابتسامة صفراء، أخيراً سنضع حداً للمرارة والتشرد والجوع، غدا عند الفجر سيحملنا القارب نحو أوروبا؛ حيث سنطلب حق اللجوء الإنساني ونمزق جوازات سفرنا لنبدأ حياة جديدة، لن نتشرد هناك؛ سيأخذنا الأوروبيون إلى مخيمات اللاجئين وبعد أشهر سيتم إعطاؤنا إقامة وسكناً، هكذا أخذ الأب يعبر عن أحلامه

